انقذوا تراث الأندلس

واجب الأمم العربية والاسلامية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأنا فى الأنباء الأخيرة أن مندوب بوليفيا (من جمهوريات أمريكا الجنوبية) لدى عصبة الأمم قد أثار أمام إحدى لجان العصبة مسألة الآثار الفنية فى اسبانيا وما يهددها من الأخطار من جراء الحرب الأهلية الطاحنة التى تجتاح اسبانيا من أقصاها إلى أقصاها ، وطلب أن تعمل العصبة لحماية هذه الذخائر الفنية ولا سيما فى الأماكن التى تهددها ويلات الحرب

ونحن نعرف أن عصبة الأمم لا تملك وسيلة للتدخل الفعلى فى المأساة الاسبانية ، ولا تستطيع مع الأسف أن تعمل شيئاً لحماية الآثار الفنية فى اسبانيا

بيد أن لهذه الصيحة الكريمة التى يرسلها مندوب بوليفيا قيمتها وأهميتها فى تذكير العالم المتمدن بأن فى اسبانيا تراثاً فنياً بديعاً هو اليوم رهين القدر ، ووشيك التبدد والفناء ، إذا لم تتداركه يد الحماية والغوث

وهذه صيحة يجدو بنا أن نرددها . ذلك أن بين هذا التراث الذى تحدق به الأخطار من كل صوب بقية نفيسة من تراث الاسلام فى اسبانيا : هنالك فى غرناطة الحمراء وجنة العريف وأبهاؤهما ونقوشهما الرائعة ، وهنالك فى أشبيلية قصر بنى عباد ، وبرج « الجيرالدا » ، وهنالك فى قرطبة مسجدها الأموى الجامع الذى ما زال رغم تحويله إلى كنيسة من أروع الآثار الاسلامية ، وهنالك تراث الاسلام الفكرى فى قصر الأسكوريال ؛ وهنالك آثار ونقوش اسلامية كثيرة فى معظم المتاحف والمدن الاسبانية ؛ وكلها مما يلقى أعظم ضياء على تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها فى أزهر وأمجد عصورها (١)

ولقد كنا أول من أرسل هذه الصيحة منذ بدء الحرب الأهلية الاسبانية ، إذ كنا يومئذ على مقربة من اسبانيا مسرح المأساة ، وقرأنا فيما قرأنا من أنبائها أن طيارات حكومة مدريد قد ضربت مدينة غرناطة بالقنابل (وغرناطة ومعظم قواعد الأندلس الأخرى ما زالت بيد الثوار) ، وأن قنابل قد سقطت على قصر الحمراء فأتلفت بعض جدرانه ، فأثار هذا النبأ فى نفوسنا شجنا وأسى ، وكتبنا يومئذ نلفت نظر العالم المتمدن ، ونظر العالم الاسلامى خاصة الى ذلك الخطر الداهم الذى يهدد تراث الاسلام فى أسبانيا

وهذه مأساة القصر (الكاثار) المروعة بجوار طليطلة ، وقد خرب فيها حصن القصر القديم الذى يرجع معظم بنائه الى العصر الاسلامى

وفى الأنباء الأخيرة أيضا أن زعماء الثورة رأوا أن يجتذبوا ولاء الجنود المغاربة وأن يثيروا حماستهم بأن يسمحوا لهم باقامة الصلاة فى جامع قرطبة الكبير الذى هو اليوم كنيسة جامعة ؛ ونحن نغتبط إذ يستطيع المسلمون أن يؤدوا شعائرهم فى ذلك المسجد الجامع القديم الذى هو أبدع آثار الدولة الأموية فى الأندلس ؛ ولكنا نخشى أن تؤدى الفوضى العسكرية فى مثل هذه الظروف الى تشويه هذا الأثر الاسلامى الخالد أو تخريبه

والآن يزحف الثوار على مدريد ويطوقونها من الشمال والجنوب والغرب ؛ وتضطرم حول العاصمة الاسبانية وفى سمائها حرب طاحنة لا يقف المتحاربون فيها عند شىء ولا يفرون شيئا ؛ وفى مدريد متحف يضم كثيرا من الآثار والنقوش الاسلامية ؛ وعلى مقربة من مدريد تقع ضاحية الاسكوريال ، وفيها الدير المسمى بهذا الاسم والقصر الملحق به الذى يضم المكتبة العربية الشهيرة ؛ فالآن وهذه المعارك الطاحنة تدور حول مدريد بين جيوش الحكومة وجيوش الثورة ، ماذا يكون مصير الاسكوريال ومصير الآثار والكتب العربية ؟ هذا سؤال نردده جزعين خصوصا بعد الذى رأينا من روعة هذه الحرب التى تجتاح فى طريقها كل شىء ولا تقف عند أى اعتبار انسانى

لقد عملت اسبانيا النصرانية فى إبان غلوائها وتعصبها على تبديد معظم تراث الاسلام ، وكانت يوم مصرع الأندلس ، ويوم كانت لا تزال تضطرم بروح العصور الوسطى ، تعتبر هذا التراث رجسا يجب أن يمحى من أرضها ومن تاريخها القومى ؛

(١) عنى الأستاذ المستشرق ليفى بروفنسال بجمع النقوش والنصوص الأثرية الاسلامية فى اسبانيا وشرحها وترجمتها الى الفرنسية فى كتاب ضخم فى مجلدين عنوانه « النقوش الاسلامية فى اسبانيا » Inscriptions Arabes d'Espagne وبه صور عديدة لهذه النقوش والنصوص

فلم تمض أعوام قلائل على سقوط غرناطة حتى أمر الكردينال كنيس بالكتب العربية فجمعت من سائر الأنحاء وأحرقت أكداساً في أكبر ميادين غرناطة، وكان منها ألوف مؤلفة من كتب الدين والفقه والتاريخ والأدب وغيرها، ولم يستثن منها سوى ثلثمائة من كتب الطب والرياضة وهبت لجامعة الكالا (القلعة) التي أنشأها كنيس، وأبيد بتلك الجريمة البربرية التي ارتكبت عام ١٤٩٩ معظم تراث الأندلس الفكري [١]

ومع ذلك فقد بقيت من الكتب العربية في اسبانيا مجموعة كبيرة أودعت في أقبية الأسكوريال، وأخفيت بعناية عن نظر كل باحث ومتطلع؛ وكان عددها حتى أواسط القرن السابع عشر يبلغ نحو عشرة آلاف مجلد؛ ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس، ففي سنة ١٦٧١ شبت النار في الأسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد، ولم ينقذ منه سوى ألفين، هي التي عهدت الحكومة الاسبانية في منتصف القرن الثامن عشر الى العلامة اللبناني ميشيل الغزيري ببحثها وتصنيفها في فهرسه الجامع [٢]، وهي التي بقيت إلى يومنا من تراث الأندلس

هذا عن تراث الأندلس الفكري. أما عن الآثار المادية، فقد حولت جميع المساجد الجامعة إلى كنائس، وتناولتها يد التدمير بالهدم والتحوير، وضحيت جميع الذخائر والاعتبارات الفنية في سبيل تحقيق الشهوات الدينية؛ ولم يأت القرن الثامن عشر حتى كادت آثار الاسلام كلها أن تمحى من اسبانيا؛ ولم يبق منها سوى حمراء غرناطة ومسجد قرطبة والقصر في أشبيلية ومجموعة من اللوحات والتحف والنقوش الأثرية في متاحف مدريد وقرطبة وبنبلونة وأشبيلية وغيرها

هذه البقية الباقية من تراث الاسلام في اسبانيا يحدق الآن بها خطر داهم، ويخشى بحق أن تمتد إليها يد التدمير التي تحطم الآن كل شيء في طريقها؛ فهل تبقى الأمم الاسلامية على صمتها وجمودها حتى تقع الفاجعة ويمحى ذلك التراث العزيز بحت وابل النار والقنابل، أم يجدر بالأمم الاسلامية أن تحذو حذو مندوب بوليفيا لدى عصبة الأمم فترفع صوتها مطالبة بالعمل لانقاذه وحمايته؟ نعتقد أن الأمم الاسلامية المختلفة تستطيع أن تبذل على يد حكوماتها من المساعي في هذا السبيل ما يكفل لفت نظر الفريقين المتحاربين في اسبانيا إلى احترام هذا التراث المقدس الذي لا يعنى أمره اسبانيا وحدها، بل يعنى أمره العالم العربي والاسلامي أيضاً، ويعنى أمره العالم المتمدن بأسره

ولسنا نعرف أي سبيل ستتخذ عصبة الأمم إذا استجابت لدعوة مندوب بوليفيا، وهي بلا شك سوف تحلها مكانها من الأهمية والعناية؛ وليست الوسيلة مما يهم في الواقع، وكل ما يهم هو أن يصل هذا النداء إلى حماية الآثار والذخائر الفنية إلى الفريقين المتحاربين في أسبانيا؛ وإذا لم يكن في وسع الأمم والحكومات ذات الشأن أن تساهم في هذه الدعوة بطريق مباشر، وأن تتصل في ذلك بطريق الثوار، وهم يسيطرون على أشبيلية وقرطبة وغرناطة، فلا بأس من أن تساهم فيها على يد عصبة الأمم ذاتها

ونحن نعرف أن حوادث الحرب الاسبانية، ووسائلها المخربة، ومناظرها المؤسية، كانت مثار الروع والأسى في جميع الأمم المتمدنة، ونعرف أن حكومات بعض الدول العظمى قد فكرت في أن تقوم بالسعي في سبيل تخفيف ويلات هذه الحرب الأهلية الطاحنة، وحمل الفريقين المتحاربين على اتباع القواعد الانسانية، وربما بذلت بعض النصح في هذا السبيل؛ ولا ريب أن تحطيم الآثار والذخائر الفنية لا يقل شناعة عن سفك الدماء ذاته، ومن أقدس واجبات الجيوش المتمدنة أن تحرص على قدسية هذا التراث الفني وصونه من كل اعتداء

هذا ويجدر بالهيئات العلمية والثقافية في الأمم العربية والاسلامية أن تتخذ الخطوة الأولى في هذا السبيل، فتبث إلى حكوماتها المختلفة ما يساورها على مصير الآثار الأندلسية من جزع، وترجوها أن ترفع صوتها الرسمي بالدعوة إلى حمايته، وأن تبذل في ذلك السبيل ما استطاعت من السعي الودي؛ وفي وسع هذه الهيئات العلمية والثقافية أيضاً أن تذيع دعوتها في الصحافة الدولية، فللصحافة الدولية صوت مسموع، وفي وسعها أن تقوم بدور في هذا الشأن، وهي ما زالت تنوه بشناعة الاجراءات

(١) تقدر الرواية الاسبانية عدد الكتب العربية التي ذهبت ضحية هذه الجريمة الشائنة بنحو ثمانين ألفا

(٢) Casisi : Bibliotheca Arabico Hispana Escurialensis أو «المكتبة العربية الاسبانية في الأسكوريال» وهو باللاتينية في مجلدين كبيرين